مقدمة

جاء الرسول أعظم عليه الصلاة والسلام بالرسالة الخالدة.. رسالة الإسلام.. لتكون خاتمة الرسالات إلى يوم الدين.

وحملت هذه الرسالة الخالدة كل التعاليم والفضائل التى جعلت المسلم على صلة حقيقية بربه، وعلى صلة حقيقية بالناس.

فالإسلام هو دين التوحيد.

والإسلام جاء بشريعة تحدد علاقة الإنسان بربه وبالناس، وفيه من القيم والمبادئ والمعتقدات ما تجعل المسلم على بصيرة من حقيقة وجوده فى هذه الدنيا.

كما أن هذا الدين الحنيف الذى أخرج الأمة العربية من سباتها العميق إلى نور العلم والمعرفة وتأكيده على أهمية أن يكون الإنسان واعياً بحقيقة الكون ونواميسه من حوله، وأن يكون الإنسان قادراً على استيعاب حضارة عصره، ومستشرفاً أمال غد مشرق جديد.. بالعلم.. والعمل.. والأخذ بالأسباب.. مع الإيمان بخالق كل شىء.. وقدرته وهيمنته على الكون، ومعرفته بأدق خبايا النفوس والأشياء فى كونه.. الإسلام بكل هذا دين علم وتحضر وثقافة، وليس دين جهل وتخلف وانغلاق.

ولأن الإسلام هو الدين الخاتم.. ولأنه لكل زمان ومكان، كان لابد من الاجتهاد.. فالاجتهاد هو الذى يعطى لهذا الدين مرونته وحيويته وقدرته على استيعاب المتغيرات فى مختلف العصور، منذ أن جاء الرسول برسالته إلى أن يرث اللّٰه الأرض ومن عليها.

فالاجتهاد.. يعنى التقدم.

والاجتهاد.. يعنى أن يكون الإسلام صالحاً لكل العصور والاجتهاد يعنى تفسير كل الظواهر المستحدثة فى المجتمع وجعلها تتوافق مع أحكام الشريعة.

ولو تصورنا أن باب الاجتهاد قد أغلق، فمعنى ذلك أننا نجمد حركة الحياة . . وحركة التطور، وحركة النهضة . . وأن نقف بينما العالم يتقدم من حولنا . . وبالتالى نتخلف عن موكب الحياة فى تطوره ونمائه وانطلاقه إلى غد جديد . . لأن الحياة من طبيعتها التغير . . أو على حد تعبير أحد فلاسفة اليونان : «إنك لا تنزل إلى النهر الواحد مرتين» بمعنى أن الحياة متموجة متغيرة متقلبة فالإسلام دين مرن صالح لكل زمان ومكان ، وكتاب الله الذى تعهده اللّه سبحانه وتعالى بالحفظ موجود . . وهو المرجع لمعرفة صحيح الدين . . وسنّة الرسول ﷺ قائمة توضح ما يجب أن يعرفه المسلم عن دينه .

والإسلام فيه (ثوابت) وهى المعتقدات من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، وفيه متغيرات تختص بالمعاملات وشرح الشريعة (الفقه) . . يتطلب أن يظل باب الاجتهاد مفتوحاً . . حتى يفسر كل جديد بنظره لا تخالف صحيح الدين .

ومن هنا فقد ظهر الأئمة الكبار .

درسوا القرآن الكريم وعلومه .

ودرسوا سنة الرسول .

وكان لهم من المعرفة والموهبة ما أهلّهم أن يكون فقههم نور هداية للناس، وعلامة طريق لكل من يريد أن يفهم أمور دينه عن وعى وبصيرة .

ومع كل ما قدمه هؤلاء الفقهاء الكبار من فقه وعلم لم يلزموا به أحداً من الناس . . بل لاقوا صنوفاً من التعذيب، وشعروا بالهوان، وهم يرددون ما يرونه هو الحق . . ولم ترهبهم سلطة ولا سلطان، ولا خشوا فى سبيل معتقداتهم إلا اللّه، بل أنهم فضّلوا ما عند الله عما عند السلطان، وكان بإمكانهم أن يصلوا إلى أعلى المراتب المدنية، ولكنهم رفضوا كل المظاهر التى تبعدهم عن الحق ، وآثروا ما عند اللّه عما عند العباد . . فكانوا خير قدوة وخير مثال .

الإمام الحسين مثلا . . كان على فقه عظيم، وكان شديد الخوف من اللّه، وكان يمكنه أن يعيش آمناً بعيداً عن بطش السلطة، لو أنه نطق بكلمات . . ! وأن يبايع بنى أمية بالخلافة!

ولكنه وقف مع المبدأ الذى يؤمن به . . وأن بنى أمية حوّلوا الخلافة إلى ملك عضوض ، وتجاهلوا الشورى، وأخذ البيعة من الناس بالإكراه وحد السيف حيناً، وبالدهاء والمكر حيناً آخر، فرأى الإمام الحسين ألا يبايعهم بالخلافة . . بل رأى أن يواجههم رغم أنه يعرف تماماً أنه وبما حوله من بعض الأنصار لا يمكنهم أن يقضوا على سلطة بنى أمية العاتية، ونفوذهم الضخم فى أنحاء العالم الإسلامى . . ولكن الإمام الحسين كان يريد أن يهز المجتمع الإسلامى من الأعماق . . أن ينبه الناس إلى ظلم بنى أمية وعدم أحقيتهم فى خلافة اغتصبوها بحد السيف.

كان الإمام يريد أن يطلق صيحة مدوية تجعل العالم الإسلامى يفيق، حتى لو ذهب هو نفسه ضحية هذا الاعتقاد . . وقد استشهد الإمام الحسين فى كربلاء بالفعل . . وكان دمه علامة طريق فى سبيل التحرر من بنى أمية، أو أحد الروافد التى كانت سبباً فى انهيار ملكهم فيما بعد.

والذين قرأوا سيرة الإمام الحسين يرون كيف كان شديد التأثر بجده ﷺ ، وقد روى هو عن أبيه الإمام على بن أبى طالب الكثير عن جده . . ومثال ذلك قوله رضى الله عنه :

سألت أبى عن سيرة رسول الله ﷺ فى جلساته فقال: كان رسول الله دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولافحاش ولاعياب ولا مشاح، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه، ولا يخيب فيه، فقد ترك نفسه من ثلاث : المراء، والإكبار وما لا يعنيه.

وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحد ولا يعيبه ولا يطلب عورته . . ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا

سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا إليه حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته، حتى أن كان أصحابه ليستجاونهم ويقول:

« إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه ، ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء، ولايقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهى أو قيام».

ولا شك أن الإمام الحسين قد تأثر بما رآه وسمعه عن جده العظيم ، ومع ذلك فلم يرحمه طلاّب الدنيا وقتلوه تقرباً وزلفى للسلطان.

***

ونرى حفيده الإمام زيد بن على زين العابدين الذى عاش حياته طلبا للفقه والعبادة ولكنه وجد نفسه هو الآخر مضطراً لمقاومة الظلم، ورفع راية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وانتهت حياته شهيدا.

فإذا ما توقفنا عند أئمة الفقه الكبار من أمثال أبى حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعى، وأحمد بن حنبل، فنرى نماذج رائعة لهؤلاء الذين عاشوا للعلم وبالعلم، وآثروا ما عند اللّه على ما عند العباد، فأبو حنيفة مثلا الذى قال عنه الإمام الشافعى:

- ما كانت الناس على رجل أعقل من أبى حنيفة . . ولكنه مع ذلك رفض أن يلى القضاء، ولم يرضخ لما يعتقد أنه الصواب، حتى أن أمه قالت له وقد رأته وقد ضرب بالسياط.

(يا نعمان إن علما ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه).

فقال: يا أماه . . لو أردت الدنيا ما ضربت ، ولكن أردت وجه الله تعالى وصيانة العلم، ولم أعرضه للهلكة. . وكان مع كل علمه وفضله وفقهه يقول:

- علمنا هذا الرأى . . فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه . . ومع كل ما لاقاه من صلف الحكام وطغيانهم ، ظل هو القريب من اللّه، حتى أنه آثر أن يلقى ربه ساجداً.

***

والإمام مالك بن أنس . . صاحب الموطأ كان يقول:

- ما أفتيت حتى شهد لى سبعون، ولو نهونى لانتهيت.

وكان يرى أن العلم ليس بكثرة الرواية ، ولكن نور يضعه الله فى القلب.

- والإمام الشافعى قالوا عنه : كان الشمس للدنيا والعافية للناس، وليس منه عوض..

ويروى الرواة أن ابن معين قال لصالح بن أحمد بن حنبل :

- ما يستحى أبوك . . يمشى وقد أخذ بركاب الشافعى؟

وعندما تحدث صالح لوالده فى ذلك كان رد الإمام أحمد بن حنبل:

- قل له إذا أردت أن تتفقه فخذ بركابه الآخر . . والإمام أحمد بن حنبل الذى لم يتزوج إلا بعد الأربعين طلباً للعلم، وكتب المسند الذى صنفه سنة ١٨٠هـ ويضم مائة وعشرين ألف حديث.

و. . . ما أكثر الفقهاء الذين تركوا لنا فقها ومواقف لاتنسى من أمثال الإمام الغزالى، والعز بن عبدالسلام. . والإمام الليث بن سعد الإمام محمد عبده . . أسماء لامعة فى سماء الفكر الإسلامى، وعندما تتوقف عند أفكارهم، وما تركوا من روائع أثرت فى الفكر الإ ، فإن ذلك يذكرنا بأسماء كتب لاجتهاداتهم الخلود، رغم أنهم عانوا فى حياتهم، وعرفوا التعذيب. . وعرفوا مرارة السجون. . وعرفوا الهوان مع الناس. . ولكنهم لم يبالوا بما لقوا، لأن لهم رسالة أسمى وأخلد. . وذهب الذين عذبوهم . . وطواهم النسيان. .بينما بقى هؤلاء الأئمة

بفكرهم واجتهادهم فى قلوب الناس . . ملايين الناس . . عبر كل العصور . . وإلى أن يرث اللّٰه الأرض ومن عليها .

وحول سيرة حياة هؤلاء الأعلام، لنا وقفة سريعة . . أشبه بنظرة طائر إلى أعمالهم . . وحياتهم حتى نعرف أقدارهم . . وفى نفس الوقت نعرف أن الفكر الإسلامى لا يعرف العقم . . فقد ظهر وسيظهر مجتهدون . . يخدمون دينهم . . ويخدمون الإنسانية من خلال وعيهم الجاد للدين الحنيف .

مأمون غريب